

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

بعث القومية الافريقية فيما بين الحربين

(١٩١٨ – ١٩٤٨)

للدكتور زاهر رياض
معهد الدراسـات الافريقية

اذا كانت اهداف الافريقيين فى ثوراتهم الحالية ضد المستعمرين الأوروبيين قد اختلفت بين دولة وأخرى . فاقتصرت على المطالبة بحق الوطنيين فى المساواة بالأوروبيين سواء فى الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية كما هو الحال فى شرق إفريقيا واتحاد جنوب إفريقيا ، وارتفعت الى الرغبة فى التمتع باستقلال داخلى ضمن مجموعة أكبر تضمهم الى جانب الدول التى كانت تستعمر بلادهم كما هو الحال فى دول المجموعة الفرنسية . وتطلعت الى ما هو أعلى من ذلك والتمتع باستقلال كامل مع الارتباط بالدول صاحبة السيادة السابقة من أجل مزيد من التعاون فى المجال السياسى أو الاقتصادى ، كما هو الحال فى تونس وغانة . وأخيرا ارتقت الى الظفر بالاستقلال التام البعيد عن كل أثر لنفوذ أجنبى ، كما هو الحال فى ليبيا والمغرب والصومال وإتيوبيا ، فان هذه الحركات كلها يجمعها هدف واحد هو الرغبة فى التخلص من النفوذ الأجنبى الذى كان يحول بينهم وبين حرية العمل والانطلاق .

وقد ظهرت هذه الرغبة أكثر ما يكون بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذا الظهور القوى عقب انتهاء الحرب يقودنا الى الاعتقاد أن هذه الحركات لابد أن تعود الى أسباب وعوامل كثيرة لا بد أنها كانت تمتد الى سنوات طويلة سابقة لهذه الحرب ، نستطيع أن نطلق عليها سنوات التخمر . فمثل هذه الحركة الجزائرية التى اشتعلت فى البلاد هذا الاشتعال القوى حتى لقد دفعت بالشعب الى امتشاق السلاح والتحول الى حرب علنية فى سنة ١٩٥٤ لا يمكن أن تعود فى أسبابها الى ١٩٤٥ فقط .

ولا شك أن أول العوامل التى ساعدت على ايقاظ هذه القومية الافريقية التى بدت عارية بعد الحرب العالمية الثانية ، تلك الحركات القومية التى قامت فى إفريقيا وغير إفريقيا

فيما بين الحربين [1] استنادا الى تصريح المستر ولسن ذى الأربع عشرة مادة والذى نص فى إحداها على حق الدول فى تقرير مصيرها ، فالحركة القومية المصرية التى بدأت فى مارس سنة ١٩١٩ ايقظت السودانيين فى الجنوب فقام على عبد اللطيف ينادى باستقلال السودان حين الف جمعية اللواء الأبيض فى سنة ١٩٢٤ ورفع علما ابيض رسم عليه خريطة للنيل وفى ركن منه العلم المصرى الاخضر ، وكان لهذه الحركة أيضا صدى قوى فى الجزائر فقام الأمير خالد الهاشمى بن الأمير محيى الدين وحفيد الأمير عبد القادر الجزائرى وكون وفدا سافر على رأسه الى فرساى ليطالب بحق بلاده [2] كما قام الشيخ مصالى الحاج والف (نجم شمال إفريقيا) ليضم اليه التونسيين والمراكشيين من أجل الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية والاجتماعية للمسلمين المغاربة [3] وتردد صدى لهذه الحركة المصرية فى المغرب أيضا فقام الزعيم الريفى عبد الكريم الخطابى بحركته فى سنة ١٩٢٢ يقاوم السلطتين الأسبانية والفرنسية مجتمعتين ، واستمرت حركته الى سنة ١٩٢٦ حين اضطر الى التسليم ، وفى المغرب الفرنسى جاء أثرها متأخرا حين تأسست (كتلة العمل الوطنى) وإن كانت محدودة المطالب لا تعدو المطالبة بالتطبيق الدقيق لمعاهدة سنة ١٩١٢ الخاصة بالحماية والغاء كل حكم فرنسى مباشر ومشاركة المغاربة للفرنسيين فى القبض على زمام السلطة فى مختلف فروع الادارة [4] هذا الى جانب اشتداد الحركة السلفية ، وقد لجأ الفرنسيون الى مقاومة الوطنيين بنفس الطريقة التى لجأ اليها البريطانيون فى مصر وهى بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد فأصدرت المرسوم البربرى فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ [5] وفى تونس قدم الزعيم عبد العزيز الثعالبى عريضة الى الرئيس ولسن فى سنة ١٩١٩ مطالبا باستقلال بلاده فى الوقت الذى تألف فيه الحزب الدستورى وتقدم الى السلطان بعريضة يطالب فيها بالدستور وقد اتخذت فرنسا ازاء هذه الحركة نفس الخطوات التى اتخذتها السلطات البريطانية فى مصر بنفى الزعماء الى خارج أوطانهم [6] وكأن ظهور هذه الحركات فى الشمال

---

(١) The New Ghana, p.p. 52, 56

(٢) السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٢٧٥

(٣) السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٢٨٣

(٤) المغرب الأقصى ص ١٧

(٥) حديث المغرب فى المشرق ص ١١

(٦) هذه هى تونس ص ٨٦ و ٨٧

الافريقى قد دفع بايطاليا الى استرضاء أهالى ليبيا مخافة سريان الثورة اليها أيضا فأسرعت تسترضى أهلها ، فمنحتهم دستورا فى اكتوبر سنة ١٩١٩ يعطى لبرقة مجلس نواب محلى ينص على حرية الاهالى فى انشاء المدارس ومباشرة مختلف الحريات كما نص على احترام لغة البلاد ، كما فتحت باب المفاوضة مع السيد إدريس السنوسى وانتهى الأمر إلى اتفاق الرجبة فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ [١] كما يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن الحرب الايطالية الاثيوبية فى سنة ١٩٣٦ كانت قد زرعت روح الثقة على المستعمرين والعطف على الاثيوبيين الافريقيين [٢] .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، فكانت عاملا ثانيا فى يقظة الشعوب الافريقية ، وامتدت حركة البعث الى جميع أجزاء القارة الافريقية ، فقد جمعت ميادين الحرب المختلفة الرجل الافريقى إلى جانب الرجل الاوربى ، ورأى الاول سيد الأمس يذبح ويذبح بلا رحمة ، كما كان الافريقيون يفعلون مع بعضهم قبل أن يأتى اليهم الرجل الأبيض لتمدينهم على حد تعبيره . بل كان سبب هذه الحرب هو نفس السبب الذى كان يدفع بالافريقيين إلى الحرب أيضا وهو رغبة فريق فى (استرقاق) الفريق الاخضر واخضاعه لسلطانه . فلم يجد الافريقى فرقا بينه وبين من يدعى السيطرة عليه [٣] .

وفى سبيل كسب الانصار ، سعى الحلفاء والمحور الى نشر الدعاية لقضيتهم ، فادعى كل منهما انه يمثل الاتجاه الديموقراطى الذى يتمثل فى المساواة والرغبة فى حرية الشعوب وصور الحلفاء للافريقيين هتلر فى شكل الطاغية الذى يريد أن يفرض سلطانه على جميع الشعوب ، فعرف الافريقى حينئذ أن فرض السلطان شىء مكروه وأصبح يصارح به صاحب السيادة عليه الذى لم يستطع أن ينكر ذلك . وعرف الافريقى أنه يوم تنتهى الحرب سواء بانتصار المحور أو الحلفاء فسوف ينال استقلاله استنادا الى هذه الوعود التى اسرف الفريقان فى بذلها [٤] ولم يكن هذا مجرد وهم استولى على الافريقى بل ايقن بذلك مستندا الى ميثاق حلف الاطلنطى الذى نادى به الرئيس روزفلت خلال الحرب ، فلم تكد الحرب تضع أوزارها حتى قامت أندونسيا تطرح عنها نير الاستعمار الهولندى الذى استمر اكثر

---

(١) ليبيا من الاستعمار الايطالى إلى الاستقلال ص ٩٢

(٢) القومية الافريقية ص ١٠ و ١١

(٣) القومية الافريقية ص ٣٣

(٤) تاريخ غانة الحديث ص ٢٧٥

من ثلاثة قروض وكانت وسيلتها الكفاح المسلح ، فى الوقت الذى نالت فيه الهند استقلالها عن طريق الكفاح السلمى ، وتمتعت كل من الدولتين باستقلالها وأحسنت التصرف فيه رغم قصور امكانياتهما العلمية والثقافية ، فكانت هذه أمثلة واضحة لارادة الشعوب الواعية اذا صممت على الحصول على غايتها .

ولم تكن الاشتراكية الشيوعية بأقل أثرا فى بث بذور الثورة على الرأسمالية الغربية الممثلة فى الدول الاستعمارية ، ففى المستعمرات الفرنسية سمحت الحكومة بتأليف النقابات العمالية على أن تضم العمال الأوروبيين والافريقيين على السواء ، على أن تكون هذه النقابات فروعا من الاتحاد الفرنسى العام للنقابات [1] ولو أن هذا التنظيم جاء متأخرا لم يتم الا قبل بداية الحرب العالمية الثانية بقليل ، الا أن العمال الافريقيين أثبتوا أنهم خير تلاميذ للعمال الفرنسيين ، إذ سرعان ماتعلموا منهم التنظيمات النقابية وكيفية تنظيم المطالبة بالحقوق ، وكذلك كيفية تنظيم الاضرابات أو التهديد بها ، ولا بد أن الحكومة الفرنسية حين سمحت بانضمام العمال الافريقيين الى هذه المنظمات والنقابات لم تكن ترمى لا إلى إخضاع الافريقيين للأوروبيين ليتمكن الأخيرون من تسيير الاولين واخضاعهم لقراراتهم بحكم كونهم يكونون أغلبية العمال والمسيطرين على المراكز الرئيسية فى النقابات المختلفة ، الا أن القياد سرعان ما أفلتت من يدها بل من يد العمال الفرنسيين أيضا . اذ لم تلبث الحرب أن قامت وخرج كثير من العمال الفرنسيين ليأخذوا مكانهم فى الجيوش فى ميادينها المختلفة ، وأصبحت الأغلبية الفرنسية أقلية ، وتحكم الافريقيون فى النقابات ومصائرها ، حتى اذا كبر على العمال الفرنسيين أن يصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين وعولوا على أن يكونوا عنصرا مشاغبا تسلم العمال الافريقيون عبء القيادة فى حزم وكسبوا مكاسب لأنفسهم ، فاستطاعوا خلال فترة قصيرة أن يكسبوا الغاء السخرة العمالية التى كانت سائدة بل قانونية حتى سنة ١٩٤٦ كما كسبوا اجبار الشركات على الاعتراف بحد أدنى للاجور ، والحصول على لائحة تنظيم العمل بالنسبة للموظفين [2] وكذلك الحصول على قانون يشرع نظاما للعمل فى القطاع الخاص ، كما كسبوا الحق فى الاجازة المدفوعة الاجر ، وحق العمال فى نظر قضاياهم أمام محاكم عمالية ، فلم تملك الحكومة ازاء هذا كله الا أن تحاول دفع بعض الفرنسيين

---

(١) الكمرون فى طريق الاستقلال ص ٧ و ٨

(٢) الكمرون فى طريق الاستقلال ص ١١

الى المطالبة بربط النقابات بمنظمة (قوة العمل) الأمريكية التى تدافع عن حقوق الرأسماليين، بل عن المصالح الأمريكية خاصة، فلم يسع العمال الافريقيين الا الانفصال بالنقابات عن الاتحاد العام الفرنسى للنقابات والوقوف على أقدامهم مستقلين، ونجحت هذه النقابات الافريقية الخالصة فى اثبات وجودها.

وكأنما تغاضت الحكومة الفرنسية عن هذه الخطوة فلم تقاومها لأنها ما زالت محصورة فى الحيز العمالى، ومطالبها لاتعدو المطالب العمالية، ولكن الأمر لم يلبث أن خرج عن هذا الحيز الضيق المحدود الى المجال السياسى، والحق أنه لايمكن بحال من الاحوال أن ينفصل الكفاح فى المجال الاقتصادى والاجتماعى عن الكفاح فى المجال السياسى. فمن بين صفوف القادة النقابيين خرج القادة السياسيون فولدت الأحزاب السياسية المنظمة من أجل الكفاح لتحرير الوطن، وخرج كثيرون من العمال الذين كانوا قد دخلوا المجالس التشريعية الجديدة وكذلك المجالس التنفيذية على أساس عمالى الى حيز السياسة. بل اسرع ممثلوا النقابات المختلفة (السياسيون) الى الانضمام الى بعضهم فى احزاب سياسية موحدة الأهداف من أجل حرية الوطن. ودخلت الأحزاب الجديدة المعركة الانتخابية على الأساس السياسى الجديد.

ولا نستطيع أن نغض النظر مطلقا، عما كانت الاحزاب الفرنسية الاشتراكية والشيوعية تمنحه من التأييد لهذه الحركات الافريقية فى دورها الانتقالى. اذ كانت تنظر اليها بعين العطف لأنها كانت تجدها امتدادا طبيعيا لنشاطها ونجاحا لمبادئها، لاسيما وقد وقف الاتحاد السوفيتى فى هيئة الأمم المتحدة مساندا لمطالب هذه الشعوب الافريقية كلما عنت لها فرصة عرض شكواها، فنحن نعرف أن ليوبلد سيدار سونغو زعيم السنغال تربى فى أحضان الحزب الاشتراكي الفرنسى وظل عضوا به الى سنة ١٩٤٨ (١) كما كان سلفانوس أوليمبيو زعيم توجو (الفرنسية) عضوا فى الحزب الشيوعى عندما كان فى باريس (٢) وكل من سيكوتورى زعيم غينيا ونكروما زعيم غانا لايخفيان اتجاههما الماركسى الاشتراكي (٣) كما كان فليكس رولاندمومى زعيم الكمرون رئيسا للجناح الماركسى فى حزب الاتحاد الكمرونى. وبالرغم من اتهام الدول الرأسمالية لجميع الحركات القومية الافريقية بأنها إنما

New Leaders of Africa p. 293 (١)
Ibid p. 289 (٢)
Ibid p.p. 238, 282 (٣)

تتحرك تبعا لتوجيهات الاتحاد السوفيتى ، الا أنها لم تستطع أن تعثر حتى الآن على وثيقة واحدة تؤيد الاتجاه الايجابى للاتحاد السوفييتى من أجل الاتصال بزعماء هذه الحركات ، بل أن هؤلاء الزعماء هم الذين سعوا من تلقاء أنفسهم الى الاتصال أو الوقوف أو دراسة الآراء الماركسية من أجل الاستعانة بها ، ولم يدفعهم الى هذا الاتجاه الا العنجهية الاستعمارية وسياسة الترفع والاستعلاء التى اتبعها كل من الحكام المستعمرون والمستوطنون الأوروبيون الذين يقيمون بيلادهم ، فاصرار هؤلاء الأوروبيين على تجاهل الافريقيين سواء فى النواحى السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، هو الذى دفع بالافريقيين الى تلمس السبيل للاعتراف بمكانتهم كآدميين أولا وكمساوين للاوروبيين ثانيا [1] لاسيما حين اقتنع الأوروبيون أن وجودهم فى قارة إفريقيا لا يعنى غير أن يلعبوا دائما دور السيد مهما كان حظ الافريقى من التعليم ، حتى لقد عدوا مجرد تطلع الافريقى الى أن يأخذ مكانته اللائقة بتعليمه تمردا ، فكان من أثر ذلك أن تطلع هؤلاء المتعلمون الافريقيون الى من دونهم من الافريقيين يتخذون منهم دعامة لثورتهم . الأمر الذى دعا الأوروبيين الى التكتل فى منظمات تحاول الابقاء على سيطرتها ملتمسة كل طريقة وإن كانت غير مشروعة [2] كما فعل البريطانيون فى كينيا حين الفوا فى سنة ١٩٢٥ (اتحاد الناخبين البريطانيين) وسعوا لدى الحكومة البريطانية من أجل سحب تصريح اللورد ديفونشاير الذى كان قد صدر لصالح الافريقيين فى سنة ١٩٢٣ ، حتى اذا فشلوا فى سعيهم اتجهوا الى حكومة اتحاد جنوب إفريقيا ليقنعوها بضرورة التدخل ومساعدة بريطانيي شرق إفريقيا من أجل تنفيذ سياستهم التى ترمى الى جعل كينيا موطنا للرجل الأبيض ، عن طريق سيطرة المستوطنين على الوطنيين سيطرة تامة خلال عشر سنوات .

ولقد كان للسياسة التحررية لبعض الدول الافريقية أكبر الأثر فى دفع هذه الحركات الثورية الافريقية نحو الأمام وكان لسياسة (إفريقيا للافريقيين) التى نادت بها الجمهورية العربية المتحدة وكذلك ، مبدأ (الشخصية الافريقية) الذى نادت به اتيوبيا ، كل الأثر فى هذا السبيل .

وتأتى بعد ذلك سلسلة المؤتمرات التى وجهت هذه الحركات الافريقية توجيها سديدا

---

(١) The New Ghana p. 15

(٢) الاستعمار الأوروبى لافريقيا ص ٢٢٥

مثل مؤتمر باندونج الذى عقد فى سنة ١٩٥٥ وناقش الوسائل التى تمكن شعوب قارتى إفريقيا وآسيا من تحقيق تعاون ثقافى وسياسى ، وأكد أن خضوع الشعب للسيطرة والاستغلال الأجنبى هو إنكار لحقوق الانسان الأساسية ، كما دعا الدول المعنية الى منح الاستقلال لتلك الشعوب .

ثم جاء بعد ذلك مؤتمر الشعوب الافريقية الآسيوية الذى عقد فى القاهرة فى سنة ٩٥٧ واستنكر الاستعمار والتفرقة العنصرية ، وطالب باقرار حق المستعمرات فى الاستقلال التام ، وأيد مطالب شعوب الكمرون وكينيا وأوغندا والجزائر ومدغشقر والمغرب والصومال فى التمتع بحرياتها .

وضم مؤتمر أكرا الذى عقد فى ابريل سنة ١٩٥٨ دول إفريقيا المستقلة ، وبحث مشكلات الشعوب الافريقية غير المستقلة والخطوات اللازمة لتأمين استقلال وسيادة الدول الافريقية [١] حتى اذا انقسمت دول إفريقيا فى سنة ١٩٦٠ الى كتلتين (كتلة دول الدار البيضاء وكتلة دول منروفيا) أصرت كل منهما على تأييد الحركات القومية فى كل دول إفريقيا وإن اختلفت فى وسائل هذا التأييد .

هذه كلها عوامل اشتركت فى بعث القومية الافريقية ، ولكننا نعترف فى نفس الوقت أن أحد هذه العوامل أو كلها مجتمعة لايمكنها أن تكون باعثة الى خلق هذه الروح أو ايقاظها ما لم تجد أرضا خصبة مهيئة لاستقبال البذور واحتضانها حتى تنضج ، ولن تكون هذه الأرض الخصبة والتربة المهيئة الا فى العقل الذى أوتى حظا من التعليم ، فالى التعليم والتعليم وحده يعود الفضل فى يقظة القومية الافريقية . فالتنبه الى ما للفرد أو لجزء من المجتمع من حقوق مضيعة ، ، وكذلك الاحساس بما ينزل بالفرد أو المجتمع من غبن أو عدم مساواة لايتأتى الا لعقلية واعية أوتيت حظا كبيرا من التعليم .

ومن المتفق عليه أن المجتمعات الإفريقية وكذلك الحكومات الافريقية التى كانت قائمة فى بداية القرن التاسع عشر بل الى الربع الأول من القرن التاسع عشر — فى كل اجزاء إفريقيا — اذا استثنينا مصر واثيوبيا وبعض بلاد الساحل الشمالى — كانت خالية تماما من أية مؤسسة تعليمية ترمى الى تثقيف الشعب أو رفع مستواه الفكرى والثقافى [٢] .

---

(١) الاستعمار الأوروبى لافريقيا ص ٤٧

(٢) The Christian Mission in Africa p. 62

ولم تبدأ الجهود تبذل من أجل القيام بهذه المهمة — تثقيف الشعب — الا حين قدم المبشرون الأوروبيون فى بداية الأربعين الاولى للقرن التاسع عشر .

وحقيقة هامة يجب أن ننبه لها وهى أن قدوم الجمعيات التبشيرية الى القارة سواء للقيام بمهماتهم التعليمية أو لنشر المسيحية كان سابقا لقدوم الاستعمار الاوروبى . فاذا استثنينا قدوم الفرنسيين الى الجزائر واستيلائهم على بضع مراكز ساحلية فى سنة ١٨٣٠ ، لم يبدأ الاستعمار الأوروبى لافريقيا الا بعد سنة ١٨٧٠ حين غدا الحصول على مواطن المواد الخام حلقة من حلقات الثورة الصناعية الأوربية [١] التى بدأت فى انجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر وانتقلت الى دول القارة مع بداية القرن التاسع عشر ووصلت إلى درجة كبيرة من التوسع الافقى فى أوروبا عند نهاية الربع الأول من هذا القرن ، ولكنها لم تبلغ نهايتها من التنافس بين الدول الاوروبية التى غدا فيها التقدم الصناعى مبلغا من الارتقاء الا بعد سنة ١٨٧٠ ، حين تمت الوحدتان الالمانية والايطالية وحين قامت الجمهورية الفرنسية الثالثة على أثر هزيمة فرنسا فى موقعة سيدان أمام الجيوش الألمانية — فسعت الى أن تعوض خسارتها بفقد الالزاس واللورين ، والى أن تسترد مكانتها الدولية المفقودة فى هذه الحرب . هذا فى الوقت الذى كانت البعثات التبشيرية الاوروبية قد اتجهت الى إفريقيا منذ سنة ١٨٤٠ أو قبل ذلك بقليل [٢] .

وقد بدأت هذه الجهود حين اتجهت الى غرب إفريقيا سفن ثلاث ، تحمل إلى جانب المبشرين والموظفين مجموعة من العلماء لدراسة إفريقيا أرسلتهم جمعية الحضارة الافريقية African Civilisation Society وهى جمعيـة زراعية كانت تعنى بانشاء المزارع النموذجية واستغلالها ، كما اشتركت جمعية الـكنيسة التبشيرية Church Missionary Society من أجل دراسة من ما تستطيع عمله لانشاء مراكز تبشيرية لها فى إفريقيا . ولـكن هذه المحاولة فشلت حين أخذت أمراض المناطق الحارة تفتك بأعضاء البعثة — وقد بلغ عددهم ١٤٠ عضوا — فتكا ذريعا حتى قضت على مائة منهم ومرض ثلاثون فعاد أفرادها أدراجهم بالرغم من انشائهم مزرعة نموذجية على ضفة نهر النيجر عند التقائه بنهر بنوا وكانت مساحتها عشرين فدانا زرعت قطنا واشرفت عليها جمعية الحضارة

---

(١) الاستعمار الأوروبى لافريقيا ص ٢٨

(٢) كشف إفريقيا ص ٢٢٩ وتاريخ غانة الحديث ص ٢١١

الافريقية ، ولكن التجربة أعيدت وقد وقفت الجمعية على حقيقة الحال وقوفا عمليا ونزلت عند رأى العـالم اللغوى الألمانى Schon الذى رافق البعثة من ضرورة استخدام الزنوج المحررين الذين يعيشون فى مستعمرة سيراليونى من أجل أن يعودوا إلى أوطانهم فكان ملخص برنامج العمل يقوم على أساس تدريب فريق من الزنوج فى انجلترا أو مالطة حتى إذا أتموا دراستهم فى هـذه المراكز البعيدة عن القارة بواسطة أساتذة أوروبيين انتقلوا بعد ذلك إلى معهد آخر أقيم فى خليج فورا فى سيراليونى، ليبدأوا مرحلة تدريب أخرى أكثر تقدما ينطلقون بعدها إلى داخل القارة يعملون تحت إشراف الأوروبيين .

وإذا كان التبشير ثم افتتاح المدارس التبشيرية فى إفريقيا قد بدأ فى نطاق محدود ولا تزيد عدد الجمعيات التبشيرية البروتستانتينية التى بدأت عن أربع فإن عددها لم يلبث أن زاد زيادة كبيرة لا سيما بعد أن انضم اليها عدد من الجمعيات الكاثوليكية ، ثم بعد ذلك الارثوذكسية كما أخذ بنصيب من العمل بعض الكنائس الافريقية ، فوصل عددها مجتمعة فى بعض الحقول إلى أكثر من ستين جمعية ، تزاول كل منها نشاطها لا فى منطقة إفريقية واحدة بل فى أكثر من منطقة ، يبعـد كل منهـا عن الأخرى آلاف الأميال . هـذا إلى أننا نجـد الجمعيات البروتستانتية مثـلا موزعة بين أكثر من دولة ، فهناك الجمعيات البريطانية والألمـانية والسويدية والأمريكية بل الفرنسية . كما نجد الجمعيات الكاثوليكية موزعة أيضا بين عدد كبير من الدول وإن كانت الجمعيات الفرنسية والبلجيكية والبرتغالية تأخذ مكان الأولوية بينها . وبعد سنة ١٩٤٠ بدأت بعض الجمعيات الأرثوذكسية تأخذ مكانها ، فكانت الجمعيات اليونانية تحتل رأس القائمة تليها الأثيوبية وتأتى الجمعيات المصرية فى نهايتها جميعا .

وقبل أن نستطرد إلى تفصيل الجهود التى قامت بها هذه الجميات التبشيرية يجب أن ننبه إلى أن أثرها كان ضئيلا إلى أقصى حدود الضآلة فى المـدة التى سبقت قيام الحرب العـالمية الأولى ، حتى لقد وصفتها تقارير أكثر الجهات محاباة لها ، انهـا (عديمـة الأثر) No better than nonsense [1] إذ لم تزد مدارسها الأولية Bush Schools عن أكواخ إفريقية حقـيرة لا تحوى شيئا من الأثاث أو الامكانيات الأخرى وكان مدرسوها أجهل من طلبتها سواء فى المادة التى يدرسونها أو فى طرق التدريس [2] . هذا إلى أنها ظلت تعمل

(1) The Planting of Christianity in Africa Volo 4 p. 89

(٢) غانا وحياة نكروما ص ٢٣

حتى نهاية الحرب العالمية الأولى بعيدة كل البعد عن تعضيد الحكومة أو معاونتها لا سيما فى المستعمرات البريطانية والفرنسية ولم تتعاون البعثات التبشيرية مع الحكومة إلا فى المستعمرات البلجيكية والبرتغالية . بل إن هذا التعاون جاء متأخراً جداً لم تبدأ حكومة الكونغو الحرة تعاونها مع الجمعيات التبشيرية الكاثوليكية إلا حين عقد الملك ليوبولد الثانى اتفاقاً Concordat مع الفاتيكان فى سنة ١٩٠٦ [1] مع أن هذه الحكومة (الكونغو الحرة) قامت منذ إبرام اتفاق برلين فى فبراير سنة ١٨٨٥ ، وبمقتضى هذا الاتفاق منحت هذه الجمعيات قطعا من الأرض بالمجان لاقامة منشآتها . هذا فى الوقت الذى ترددت فيه البعثات الكاثوليكية فى قبول المساعدات من الحكومة البريطانية تفاديا من إشرافها على مدارسها [2].

وكذلك لم يكن هناك أهداف معينة ولا مناهج واضحة ، بل كانت كل بعثة تسير وفق ما يرى رؤساؤها . كما لم تراع أحوال البيئة الافريقية التى تختلف تماما عن البيئة الأوروبية التى استعيرت براجها واستعملت فى افريقيا دون تحوير أو تطوير .

وتعتبر سنة ١٩١٨ سنة حاسمة فى تاريخ التعليم الافريقى حين بدأت الحكومة البريطانية تعاونها مع البعثات التبشيرية التى تعمل فى مستعمراتها ، فعقد مؤتمر جمع بين الحكام والمبشرين وبعض الافريقيين الذين قبلوا التعاون معهم من أجل دراسة مشاكل التعليم وأعقب ذلك مؤتمر آخر فى سنة ١٩٢٣ انتهى إلى تأليف لجنة استشارية لتقديم النصائح إلى الحكومة Advisory Committee on Native Education [3] وكان فى مقدمة المسائل التى أولاها جانبا من اهتمامه انشاء معهد دولى لدراسة اللغات والثقافات الافريقية . ومنذ هذا اليوم أصبح التعليم الذى تقوم به هذه الجمعيات التبشيرية يسير وفق أهداف معينة وخطط معينة روعيت فيها البيئة الافريقية والعقلية الافريقية . كما رؤى الاستعانة قدر الطاقة بالامكانيات الافريقية وعدم تجاهل الأساس الافريقى الذى كان موجودا من قبل .

ولم يكن اجتماع هذا المؤتمر إلا نتيجة دراسات عميقة قامت بها لجنة أمريكية قامت بزيارة سيراليونى وليبريا وساحل الذهب ونيجيريا والكمرون والكونغو البلجيكى وأنجولا وجنوب إفريقيا فى سنة ١٩٢١ ، ثم إثيوبيا وكينيا وأوغندا وتنجانيقا وزنجبار وموزمبيق ونياسالاند وروديسيا فى سنة ١٩٢٢

(١) An African Survey, p. 1269

(٢) Ibid p. 1236

(٣) The Christian Mission in Africa p. 58

واتفق أيضا على ضرورة التعاون بين الحكومات والجمعيات التبشيرية على أن يكون مظهر هذا التعاون هبات مالية تدفعها الحكومات واشراف فنى يقوم به رجال الحكومة من ناحية ومفتشون من رجال البعثات من ناحية أخرى (١). كما اتفق على أن تكون البرامج الافريقية غير البرامج الاوروبية بل يجب أن يراعى فى وضعها احتياجات كل بيئة إفريقية محلية وأن تكون احتياجات هذه البيئة المحلية لها الصدارة فى الاعتبار كما تحترم أساطير القبيلة وتقاليدها بل يعلم الطفل الافريقى كيف يحترم هذه التقاليد لا سيما ما كان منها لا يتنافى مع الدين المسيحى.

ومن ناحية أخرى كانت مدارس الارساليات تنظر الى الافريقيين نظرة تختلف تماما عن نظرة الحكومات المستعمرة فكانت تمثل وجهة النظر المسيحية الحقيقية المبنية على أخوة البشرية جميعا وليس أدل على ذلك من سعيها منذ بداية العمل الى تعليم رجال الدين الوطنيين ووضعهم فى المراكز الجديدة بهم بأسرع مايستطيعون، وخاصة فى الاماكن الصغيرة فى القرى النائية كما اسرعوا أيضا الى تكوين (مجالس الاباء) من أجل الاستعانة بهم فى تيسير مهمة المدرسين (٢) كما كانوا هم أول من اهتم بتعليم الفتاة (٣) بفتح المدارس الأولية ثم الابتدائية ثم الثانوية مع الاهتمام بادخال المواد النسوية ضمن برامج الدراسة مثل التفصيل والحياكة والتدبير المنزلى والعناية بالاطفال بل كانوا أسرع من الحكومة بانشاء مدارس التمريض (٤) ولا جدال فى أن هذا النوع من المدارس قد قلل من نسبة وفيات الاطفال وهو الأمر الذى كانت تعانيه قارة إفريقيا برمتها حتى بداية النصف الثانى (٥) من القرن العشرين (٦).

وقد بذلت هذه الجهود فى الوقت الذى اهتمت فيه الحكومات بتوطيد نفوذها السياسى أكثر من أى شىء آخر كما اهتمت بادخال ماتراه من النظم من أجل توطيد الامن لاجل خدمة أغراضها الاستعمارية أكثر من أى شىء. بل نستطيع أن نقول أنها أهملت الناحية التعليمية اهمالا مشينا. فقد جاءت بريطانيا الى السودان فى سنة ١٨٩٩ ورفض

---

(١) Ibid. p. 60
(٢) An African Survey p. 1269
(٣) Ibid. p. 1236
(٤) Ibid p.p. 1216, 1217
(٥) تاريخ غانة الحديث ص ٢١٣
(٦) An African Survey p. 1229

مجلس العموم اعتماد أية اعتمادات لصرفها عليه ، بدعوى انه لايكون بأى صفة من الصفات جزءاً من الامبراطورية . ولم تحاول الحكومة — وقد تركزت جميع السلطات فى يد الحاكم العام وسكرتارية الثلاثة — الاهتمام بفتح مدرسة واحدة اللهم الى كلية جوردون التى جمع رأسمالها عن طريق اكتتاب عام من أجل تخليد ذكرى هذا الرجل لامن أجل تقدم للسودان ورفاهيته ، حتى إذا تم إنشاؤها كان المصريون هم الذين تحملوا عبء التدريس فيها واحتفظ البريطانيون بوظائف الادارة فقط ، واستعملوا مع الطلبة طرقا تأديبية كانت ابعد ماتكون عن الطرق التربوية بل الانسانية — وحتى سنة ١٩٣٦ لم تقم فى السودان مدرسة ثانوية حكومية واحدة ولم يزد ما انشأوه عن عشرين مدرسة أولية وابتدائية . هذا فى الوقت الذى أقدمت الكنيسة المصرية على افتتاح أكثر من مدرسة فأنشئت أول مدرسة قبطية فى سنة ١٩٢٢ ، واستكمل قسمها الثانوى فى سنة ١٩٢٥ ، كما افتتحت مدرسة أخرى للبنين فى العطبرة ومدرسة للبنات فى الخرطوم ولم تلبث مدرسة العطبرة أن استكملت قسمها الثانوى ولم تأت سنة ١٩٣٦ حتى بلغ عدد المدارس القبطية التى اشرفت عليها كنيسة الاسكندرية أربع عشرة مدرسة كانت هى المنهل الذى ارتشف منه أكثر زعماء السودان موارد المعرفة (١) فكانت الكنيسة المصرية هى التى قادت السودانيين نحو الحضارة .

ولقد كان من أوائل الجهود التى بذلتها الجمعيات التبشيرية الاهتمام بدراسة اللغات الافريقية وخاصة لغات القبائل القوية الكبيرة العدد أو ذات التنظيم السياسى الراقى ، وعملت على اختراع الحروف التى تكتب بها بل القوا القواميس لبيان معانى كلماتها . حقيقة أن هذا العمل لم يكن مقصودا لذاته بل لتسهيل عمل المبشرين الأوروبيين ، ولكنه على كل حال عمل جدير بالاعجاب لم يتم الا بعد مجهودات شاقة ، فقد عمل العلامة الالمانى Schon على تعلم لغة الهوسا ونشر فيها كتابا للنحو وكان قبل ذلك قد أتقن لغة اليوروبا فعلمها لتلميذه الوطنى صموئيل جروثر Samuel Grawther الذى الف بدوره كتابا للنحو فى هذه اللغة (٢) كما عملت الجمعيات الألمانية التى عملت فى الكمرون على دراسة لغة البولو بل اتمت عمل قاموس لها (٣) حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ اجتمع مؤتمر الجمعيات التبشيرية

(١) كنيسة الإسكندرية فى إفريقيا ص ١٩٠

(٢) تاريخ غانة الحديث ص ٢١٣

(٣) The Planting of Christianity Vol. III p. 59

البريطانية والالمانية (البروتستانتية) من أجل دراسة الميراث الثقافى الافريقى وتعيين مكان اللغات الافريقية ، واهتم بتأليف هيئة أبحاث لهذه المسائل الحيوية على أن يشترك فيها العلماء البريطانيون والالمان كما اهتم بضرورة التوسع فى تعليم البنات الافريقيات (١) .

وكان سبق خدمة البعثات الامريكية للزنوج فى أمريكا داعيا الى تحقيقها مزيدا من النجاح فى إفريقيا ، إذ امتد نشاطها الى النواحى الاجتماعية والصحية الى جانب الاهتمام بالنواحى الدينية . وقد اعترف بفضل هذه الجمعيات الامريكية كثير من الافريقيين فى مقدمتهم المستر أجرى Aggrey الغانى الذى يذكر المستر نكروما أنه كان المعلم الروحى له (٢) .

وكانت الخطوة التالية لذلك هى ترجمة الكتاب المقدس الى هذه اللغات الوطنية ، ولا شك أن رؤية الافريقيين للغاتهم الوطنية مكتوبة قد ساعد على رفع الروح المعنوية فى نفوسهم واشعارهم بمكانتهم كآدميين . ولا شك أن هذا العمل — ولو أنه لم يكن مطلوبا لذاته — الا أنه كان خطوة واضحة المعالم فى سبيل خلق القومية الافريقية على صورة عملية . ولعلنا نذكر على سبيل المثال أن كتابة اللهجات الأوروبية فى بداية العصر الحديث كان الخطوة العملية الأولى الى رفعها الى منزلة اللغات ثم الى ظهور القوميات الأوروبية .

ولقد كان تعليم اللغات الأوروبية هدفا رئيسيا لهذه البعثات فكانت هذه اللغات الباب الذى فتح آفاق الحضارة الأوروبية أمام الشعوب الافريقية فهذه اللغات هى التى مكنتهم فيما بعد من الدراسة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية والحصول منها على الدرجات العلمية . كما أتاحت لهم قراءة الكتب بهذه اللغات وكذلك الاتصال بالآراء الاجتماعية والسياسية الأوروبية مما أتاح لهم بعد ذلك فرصة لقيادة شعوبهم قيادة واعية ، فقد انضم أغلب زعماء القارة الافريقية فى فترة ما فى حياتهم إلى الأحزاب الأوروبية ، الأمر الذى أتاح لهم فرصة دراسة التنظيمات الحزبية فى الدول المتقدمة (٣) وكذلك دراسة الوسائل التى تلجأ إليها هذه الأحزاب لكسب الانصار ونشر الآراء (٤) وأكثر من هذا فقد مكنت هذه اللغات الأوروبية من إيجاد وسيلة للتفاهم بين مختلف القبائل التى لم تكن تستطيع التفاهم

(١) Ibid. p. 110, 112

(٢) Ibid. p. 108

(٣) The New Ghana, p.p. 19, 21, 37, 39

(٤) Ibid. p.p. 54, 59 وغانا وحياة نكروما ص ٥٩ .

قبل ذلك . كما استطاع الزعماء عن طريقها نشر دعايتهم فى نطاق أوسع كثيرا مما كان فى استطاعتهم لو اقتصروا على اللغات المحلية فاستطاع نكروما مثلا أن ينشر الدعاية لحزبه فى منطقة الاشانتى والفولتا العليا . وكذلك الولايات الشمالية وهى مناطق كانت مستحيلة عليه لولا اللغة الإنجليزية المشتركة . كما استطاع فليكس بوانيه من تأليف [1] حزب التجمع الديموقراطى الافريقى على أساس أن يجمع بين جنبيه جميع شعوب المستعمرات الفرنسية فى غرب إفريقيا وقبائلها ، فكان هذا الحزب هو الذى وحد بين قبائل هذا الركن من إفريقيا حتى أصبح أكبر قوة سياسية فى هذا الركن ، ولذلك مكنتهم هذه اللغات الاوروبية من نشر الدعاية لقضاياهم فى المحافل الدولية حين احتاجوا إلى هذه الدعاية . وكان رفع شكاواهم إلى هيئة الأمم المتحدة الخطوة الاولى فى سبيل جهادهم .

وأكثر من هذا كله أن معظم الطلبة الذين التحقوا بمدارس المبشرين كانوا من أبناء الطبقتين الوسطى والدنيا ، ومن هؤلاء برز الزعماء الذين قادوا هذه الحركات القومية ، فكأن الكنيسة — ومدارس الكنيسة المجانية — هى التى نقلت القيادة بين قبائل إفريقيا الى طبقة جديدة هى طبقة الفقراء الذين لايملكون شيئاً لكسب رزقهم سوى كدهم اليومى بعد أن انتزعتها من طبقة الاغنياء بالوراثة [2] فكانت الكنيسة بذلك عاملا ديموقراطيا له أثره فى هدم الزعامة القبلية التقليدية مما سهل فيما بعد ادخال النظم الحديثة فى الحكم مثل نظام الانتخاب وإنشاء المجالس التشريعية النيابية ثم نزول طبقة الزعماء إلى المرتبة الثانية ليقوموا بوظائف ومهام أقل قيمة من التى كانوا يقومون بها من قبل .

ولقد كان مركز المرأة فى إفريقيا منحطاً غاية الانحطاط . فقد كان للرجل حق تعدد الزوجات بغير حد فى معظم القبائل الافريقية وفى اقتناء الخليلات بغير زواج . فلما جاءت البعثات التبشيرية كان للمبادىء الجديدة التى حملتها معها الأثر فى رفع مكانة المرأة واقتصار معظم الذين اعتنقوا المسيحية على زوجة واحدة . كما انطلقت هذه المرأة الجديدة تعمل فى مختلف القطاعات فأصبحت الأسواق ملأى بالنساء اللائى يعملن لكسب عيشهن أو مساعدة أسرهن . كما عملت المدارس النسائية التى افتتحتها هذه البعثات على زيادة رفع مكانة المرأة لاسيما وقد فتح مجال التعليم أمامها على قدم المساواة مع الرجل . كما أصبح

(١) The New Leaders of Afr. p. 253

(٢) The New Ghana p. 46

الرجل الافريقي لايجد في وجود المرأة الى جانبه ومشاركتها إياه سواء في التعليم أو العمل غضاضة ما .

وقد شهدت المؤتمرات الافريقية التي عقدت في القاهرة وغير القاهرة كثيرات من النساء الافريقيات اللاتي قمن بدورهن الكفاحي في سبيل استقلال بلادهن الى جانب الرجل . وتظهر الصور العديدة التي تنشرها المجلات الأجنبية في مختلف المناسبات صور النساء الافريقيات وقد كون نسبة كبيرة من الاجتماعات التي كانت تعقدها الهيئات السياسية الوطنية لرفع صوت الافريقيين بمطالبهم وقد تعرضت النساء في غانة لنيران المستعمر حين قمن بدورهن في قيادة المظاهرات والقاء المتفجرات كما تعرضن للسجن وحاولن الهرب من أجل مواصلة الكفاح حتى حصلت البلاد على استقلالها [1] . وقد زارت السيدة فتحية مصر في عام ١٩٦١ وصحبتها إحدى عضوات مجلس النواب ووقفت خطيبة في معهد الدراسات القبطية تذكر دور المرأة الغانية في الكفاح من أجل الاستقلال .

وإذا كانت المرأة الافريقية قد نالت الحقوق السياسية في بعض الدول حديثة الاستقلال فما زالت تكافح في بعض الدول الأخرى من أجل نيل حقوقهن الاجتماعية والسياسية وقد نشأت لذلك الهيئات النسائية المختلفة تطالب بتحريم تعدد الزوجات ومنع نظام (الخليلات) ومن بين النساء اللائى برزن في مؤتمر اكرا المنعقد في سنة ١٩٥٨ احدى قادة وفود الكمرون وقد كان لها صولات وجولات في اجتماعات لجنة رؤساء الوفود وكانت من أمهر المتكلمين وأشدهم بأسا [2] .

ومنذ سنة ١٩١٨ أخذت الجمعيات التبشيرية تتوسع في أعمالها وتفتح مزيدا من المراكز التبشيرية الأمر الذى اضطرها إلى التوسع في استخدام الافريقيين سواء في وظائف الكهنة أو الوظائف الادارية الأخرى [3] . وفي الأجزاء الافريقية التي بدت فيها التفرقة العنصرية واضحة لم يتردد هؤلاء الكهنة في القيام بدورهم وهو دور القيادة بين مواطنيهم الافريقيين . فلم يلبثوا أن أعلنوا انفصالهم عن الكنائس الأصلية وكونوا كنائس إفريقية منفصلة بل حدث في كل من كينيا وجنوب إفريقيا أن كتبوا إلى كنيسة الاسكندرية التي يرون فيها كنيسة

(١) انطباعات من إفريقيا في مؤتمر اكرا للدكتور نجيب اسكندر مجلة مرآة العلوم الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٥٩

(٢) نفس المصدر .

(٣) The Planting of Christianity Vol. IV p. 89

إفريقية لا تعمل لأغراض استعمارية ، كما كانت ترعى الاتيوبيين رعاية أبوية لا يظهر فيها أثر لتفرقة عنصرية ، يطلبون منها أن ترعاهم على الأساس الذى ترعى به إخوتهم الاتيوبيين [1] وهى المبادىء المسيحية التى تنادى بالمساواة . وتزعم هذه الحركة فى كينيا القس اليشع ماسيندا راعى كنيسة الروح المقدس .

وفى سنة ١٩٤٨ كتب وطنيو جنوب إفريقا إلى هذه الكنيسة فى القاهرة يطلبون رعايتها لهم فعينت لهم مطراناً وسافر المطران فعلا إلى هناك ومعه أحد الرهبان . ولم يلبث المطران أن مات وظل الراهب وحده وتجمع حوله أكثر من اربعمائة عائلة من الافريقيين موزعة على مناطق مختلفــة فى الاتحاد . يقوم على رعايتهم سبعة وعاظ إفريقيين إلى جانب الراهب القبطى [2]. ولم تنظر حكومة الاتحاد إلى هذه الحركة نظرة الارتياح وكتبت أكثر من مرة إلى حكومة القاهرة تطلب سحب الراهب . فكأن هؤلاء الرعاة الوطنيون الذين نصبتهم الكنائس الغربية من أجل مساعدتها فى أغراضهم ، قد كتب عليهم أن يقودوا اخوانهم فى جهادهم الذى كان يرمى إلى اثبات وجودهم كوطنيين لهم حقوق يجب الاعتراف بها .

كما أننا يجب أن لا نغض من قيمة الدور الذى وقفته الكنائس الغربية فى وجه التفرقة العنصرية ، فقد قامت كلها — باستثناء الكنيسة الهولندية الاصلاحية — تندد بهذه التفرقة وتدعو الحكومة إلى نبذها ومعاملة الافريقيين على قدم المساواة مع الافريقيين سواء فى النواحى الاجتماعية أو السياسية حين أخذت الجمعيات التبشيرية تهتم بالعمل والعمال اذ أخذت المؤتمرات الكنسية وخاصة المؤتمر المسيحى العالمى الذى ضم كنائس كل من أمريكا وأوروبا وآسيا وكذلك الكنائس الارثوذكسية ، توصى منذ سنة ١٩٢٥ بالاهتمام بحماية حقوق الافريقيين . كما طلب أن تكون سياسة المطابقة الفرنسية مؤدية إلى منح الافريقيين جميع الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون [3]. وهذه المبادىء هى لب الحركة الوطنية فى كل من كينيا وجنوب إفريقيا .

وقد عمدت الكنيسة أيضا إلى إنشاء المستوصفات والمستشفيات التى عملت فى جد على مقاومة الأمراض وحفظ صحة الأهلين . الأمر الذى أدى إلى انخفــاض نسبة الوفيات

---

(١) محفوظات الدار البطريركية للأقباط الأورثودكس .

(٢) مجلة مدارس الأحد عدد بابة ١٦٧٨ ش .

(٣) The Planting of Chiristanity Vol. IV p.p. 92, 102

وارتفاع معدل العمر (١). وكذلك زيادة القدرة على العمل وهذه كلها نتائج لا يمكن الغض من قيمتها ونفعها .

ولا شك أن المدارس الفنية والمراكز المهنية التى أنشأتها هذه الجمعيات بعد الحرب العالمية الأولى قد ساعدت على تخريج جيل جديد عمل فى التعدين والمراكز الصناعية التى كانت بعيدة عن مراكز قبائلهم حيث خضعوا لقادة جدد غير قادتهم التقليديين ولنظم غير نظمهم التقليدية ولم يلبث طول غيابهم عن مراكز قبائلهم وخضوعهم لنظم مخالفة لنظم قبائلهم وكذلك مزاولتهم لعادات جديدة مخالفة فى مظاهر كثيرة لعادات قبائلهم قد أدت فى النهاية إلى قطع صلتهم بقبائلهم ويعنى ذلك تحطيم النظام القبلى .

حقيقة أن هذه الجمعيات التبشيرية حين قدمت إلى إفريقيا لم يدر فى خلدها يوما أن تسعى إلى تحطيم النظام القبلى ولكن الخطوات التى سارت فيها أدت عن طريق غير مباشر إلى هذه النتيجة ، ولا شك أن تحطيم النظام القبلى يساعد على ظهور الروح القومية لحلول الوحدة القومية الجديدة مكان القبلية القديمة .

وإنا نورد هنا بعض الأعمال التفصيلية التى قامت بها هذه البعثات فى بعض الأجزاء الافريقية لنرى مبلغ الجهد الذى بذلته عن طريق الأرقام .

أنشأت الجمعيات البروتستانتية فى أوغندا حتى سنة ١٩٢٢ — ١٦٠٧ مدرسة بين أولية وابتدائية وثانوية وعالية بينما أنشأت الجمعيات الكاثوليكية ١٥٨٧ مدرسة بينما لم يزد عدد المدارس التى أنشأتها الحكومة حتى ذلك الوقت عن ١٢ مدرسة . وقد وصل عدد المدرسين الوطنيين فى هذه المدارس إلى ٤٠٦٨ مدرسا وكان عدد الطالبات فى هذه المدارس ٦٧ر٤٤٠ بينما كان عدد البنين ٢١١ر٣٢٤ طالبا (٢). وقد قفز عدد الطلبة إلى الضعف فى سنة ١٩٤٦ وقد توجت هذه الجهود أخيراً بانشاء جامعة ماكيرارى فى سنة ١٩٢٤ التى كانت فى أول أمرها مدرسة لتخرج مساعدى الأطباء وتحولت إلى جامعة فى سنة ١٩٤٥ ضمت كلية للطب وأخرى للزراعة وثالثة للهندسة ورابعة للتجارة إلى جانب بعض الفصول العملية (٣).

---

(١) Light and Darkness p.p. 33-41

(٢) Light and Darkness in East Africe

(٣) The Planting of Christianity in Africa Vol. IV

كما بلغ عدد الطلبة فى الكونغو البلجيكى فى سنة ١٩٤٣ مليونا وخمسين ألفا من الطلاب وفى رواندا أورندى ٢٢٠ ألفا . وما زال التعليم الابتدائى كله فى يد الجمعيات التبشيرية[١].

ولم تنشأ الحكومة البرتغالية فى موزمبيق حتى سنة ١٩٥٠ سوى ١٦ مدرسة بينما أنشأت الجمعيات التبشيرية ألف مدرسة ضمت ٢٥٠ ألفا من الطلاب منها ٤٤ مدرسة فنية . وفى أنجولا أنشأت الحكومة ١٢٢ مدرسة ابتدائية ومدرستين ثانويتين و ١٢ مدرسة فنية ومدرستين للمعلمين بينما وصل عدد مدارس المبشرين إلى ٢٠٧ مدرسة ابتدائية و ٢٢ ثانوى و١٦ مدرسة فنية وثلاث مدارس للمعلمين[٢]. واهتم المبشرون بالزراعة فى أنجولا فأنشأوا لها فى لواندة واحدة تبدأ بالتعليم الأولى وتتدرج ارتفاعا حتى تصل إلى مستوى التعليم الجامعى .

ويتلخص برنامج المدارس التبشيرية الكاثوليكية فى كل أجزاء إفريقيا تقريبا إلى تخصيص سنتين للتعليم الاولى وثلاث سنوات للتعليم الابتدائى وثلاث أخرى لما فوق الابتدائى . ثم ست سنوات للتعليم الثانوى وثلاث سنوات من هذه الست يكون التعليم فيها عاما . ويتخصص الطالب فى الثلاث الاخرى فى أحد الفروع وهى الادارى ، والتجارى ، والزراعى ، والعلمى ، والطبى ، والبيطرى ، أو المعلمين وهى تؤهل الطالب المنتهى إلى أن يكون مساعدا إداريا أو زراعيا أو طبيا أو غير ذلك . وعلى من يريد اتمام تعليمه بعد ذلك أن يختار إحدى أربعة مدارس عليا هى الطب ، ومدة الدراسة فيها سبعة سنوات أو الزراعة أو الهندسة أو الادارة ، ومدة الدراسة فى كل منها خمس سنوات[٣]. كما أن هناك مدارس عليا للمعلمين تؤهل خريجيها للعمل فى المدارس الثانوية .

وهناك عدد محدود من مدارس التمريض والقبول فيه يرتبط بعدد الوظائف الخالية فى المستشفيات ويقتصر القبول فى هذه المدارس على الفتيات اللائى اتممن التعليم فوق الابتدائى .

ومن ذلك ندرك أن الدور الذى قامت به الجمعيات التبشيرية فى تعليم الشعب الافريقى — ولو أنه كان ولا يزال ضئيلا بالنسبة للعدد الهائل من سكان قارة إفريقيا الذين يبلغ عددهم — باستثناء شعوب الساحل الشمالى — مائتى مليون نسمة . كان دورا عظيما وأن الأمر لو ترك للحكومات الاستعمارية وحدها فانها ما كانت تستطيع أن تقوم به منفردة . حتى لو وجدت لديها النية فى تعليم شعوب مستعمراتها وهو الأمر الذى ظل مستبعدا حتى العشرين سنة الاولى من القرن العشرين . بل إن هناك دولا أوروبية كايطاليا مثلا لم تبذل

(١) An African Survey p. 1257

(٢) Portuguese Africa p. 314.

(٣) An African Survey p. 1211.

الى وقت خروجها من المستعمرات التى كانت لها فى إفريقيا جهدا ما لتعليم الشعوب الافريقية لالنقص فى مواردها بل لأنها كانت تتعمد هذا الاهمال .

وكي ندرك أهمية الدور الذى لعبته مدارس هؤلاء المبشرين فى إيقاظ الروح القومية الافريقية يجب أن نعرف أن جميع الزعماء الافريقيين الذين قدر لهم أن يقودوا القومية فى بلادهم قد تعلموا فى مدارس المرسلين فى بلادهم بل حصل الكثيرون منهم على درجات فى الكهنوت بل أرسل بعضهم الى الخارج من أجل الحصول على هذه الدرجات . فالرئيس فولبرت بولولو رئيس جمهورية الكونغو الاوسط صاحب منصب دينى مازال يحتفظ به ويحتفظ أيضا بلباسه الكهنوتى وهارى نكوميولا زعيم حزب المؤتمر الافريقى فى روديسيا الشمالية تعلم فى مدارس المبشرين ثم عين مدرسا فى مدرسة تبشيرية ثم أرسل على حساب منحة كنسية للتعلم فى جامعة ماكيرارى فى أوغندا (١) وكذلك فعل زميله جوليوس نويريرى زعيم تنجانيقا (٢) كما تعلم كل من لومومبا زعيم الكونغو ونامادى ازيكوى حاكم عام نيجيريا وصموئيل اكينتولا رئيس وزراء نيجيريا الغربية وعمل الاخير مدة من الزمن سكرتيرا للبعثة ثم مبشرا ومازال حتى الان يرى فى مدارس المبشرين أهم اداة تعين الافريقيين فى جهادهم (٣) وهو ينادى بالكومونولث الافريقى على غرار الكومونولث البريطانى . أما كوامى نكروما زعيم غانة فقد تعلم فى مدرسة للمبشرين الكاثوليك وعمل مدة تلميذا مبشرا ثم أرسل الى مدرسة المعلمين التى أنشأتها البعثة الكاثوليكية فى اكرا مدرسا . وعمل مدة من الزمن فى مدارس المبشرين متنقلا فى مدارسها المختلفة بل حصل أيضا على بكالوريوس فى اللاهوت الى أن تحول الى دراسة الاقتصاد والاجتماع (٤) .

كما درس سيلفانوس أوليمبيو زعيم توجو فى مدرسة المانية كاثوليكية ثم تحول عنها الى مدارس تبشيرية بروتستانتية انجليزية (٥) أما توم مبويا زعيم الحزب المعتدل فى كينيا فقد درس فى مدارس المرسلين Kabaa على يد قساوسة ايرلنديين . وتلقى التعليم العالى فى مدرسة الروح القدس فى Mangu (٦) حيث درس التاريخ وحصل على شهادة فيه .

---

(١) The New Leaders of Africa, p. 94

(٢) Ibid. p. 80

(٣) Ibid. p. 208

(٤) غانا وحياة نكروما ص ٢٢ — ٣٤

(٥) New Leaders of Africa p. 208

(٦) Ibid. p. 66.

مـــراجع البحث

١ ـ اندا بانجى سيتهول : القومية الافريقية (مترجم) مصر ١٩٦٠

٢ ـ جلال يحيى : السياسة الفرنسية فى الجزائر ـ مصر ١٩٥٨

٣ ـ جاك نجوم : الكمرون فى طريق الاستقلال (مترجم) ـ مصر ١٩٥٨

٤ ـ راشد البراوى : مشكلات افريقية ـ مصر ١٩٥٨

٥ ـ الحبيب تامر : هذه هى تونس ـ مصر غير مؤرخ

٦ ـ حزب الاستقلال : المغرب الأقصى ـ مصر ١٩٥٦

٧ ـ زاهر رياض : تاريخ غانة الحديث ـ مصر ١٩٦١

٨ ـ زاهر رياض : الاستعمار الاوروبى لافريقيا ـ مصر ١٩٦٠

٩ ـ زاهر رياض : كشف أفريقيا ـ مصر ١٩٦١

١٠ ـ زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا ـ مصر ١٩٦٢

١١ ـ علال الفاسى : حديث المغرب فى المشرق

١٢ ـ نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الايطالى حتى الاستقلال ـ مصر ١٩٥٨

١٣ ـ نكروما انكوامى : غانا وحياة نكروما (مترجم) ـ القاهرة ١٩٦١

14. Amammoo, The New Ghana (Cairo, undated).

15. Edwin Smith, The Christian Mission in Africa Lon. 1926.

16. Duffy, Portuguese Africa.

17. Groves, The Planting of Christanity in Africa. L. 1958.

18. Hailey, An African Survey. Lon. 1956.

19. Rolf Italiaander, The New Leaders of Africa. U.S.A. 1961.

20. World Dominion Srvuey Series, Life and Darkness in East Africa Lon. 1922.

٢١ ـ مجلة مرآة العلوم الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٥٩

٢٢ ـ مجلة مدارس الأحد عدد بابه ١٦٧٨ ش

٢٣ ـ محفوظات الدار البطريركية للأقباط الارثوذكس